المدارس الأيوبية في مدينة حلب "مدرسة الفردوس نموذجاً"

وليد عبد الرحمن الأخرس♦

ملخص البحث:

شيد هذه المدرسة السيدة ضيفة خاتون بنت الملك العادل وزوجة الملك الظاهر غازي سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م،ومكان المدرسة خارج المدينة من جهة الجنوب في محلة الفردوس.

أن مدرسة الفردوس هي أكبر مدرسة وأكثرها تطورا بين مدارس حلب، مخططها مستطيل الشكل ٤٤م على ٥٥م مع صف من الأعمدة على الجوانب الثلاثة وتقدر المساحة المفتوحة١٣.٠٩م على ١٧.٤٥م. يحاط الصحن بصفوف من الأعمدة صنعت خصيصا للمدرسة، ومبلطة بالمرمر الأبيض و الأسود ، ويوجد في وسط الصحن حوض ماء كبير مؤلف من ثمانية أحجار رائعة.

يوجد فيها ٦ أواوين، إيوان كبير يطل على الباحة الرئيسية يلاصقه إيوان آخر كبير خلفه. واثنان صغيران متقابلان في كل البناءين الخلفيين . الكبير ينفتح على الباحة الرئيسية ويضم في جدرانه الثلاثة خزنا جدارية يعلو كلا منها نجفة مستقيمة فوقها قوس عاتق مثلثي، ويدور على جدران الإيوان نصوص تحض على العبادة. أما الخلفي فهو أكثر عمقا سد جزء من واجهته بجدار استبدل بمنجور ألمنيوم مؤخرا وهذا الإيوان مسقوف ، وبقية الاواوين بقبو متطاول مدبب، وفيها قاعتان تشغلان الطرفين الشرقي والغربي من الباحة، وهما متماثلتان ومتناظرتان. وتنقسم كل منهما بواسطة قوسين مدببين إلى ٣ أقسام، هنالك ٧ فتحات في الجدار الشرقي من القاعة شرقي الباحة وغربي الباحة.

يتصدرها بيت للصلاة طول جداره ٢٥م ، ويزيد جوفه على ٧ أمتار، ويحف به من كل جانبيه قاعة مربعة، كانت كل منهما ضريحا. ليس فيها غرف للمجاورين تتناسب مع هذه المدرسة الكبيرة.

ويرى Greswell أن المدرسة الرباعية المقسمة إلى أربعة أجزاء بواسطة أربعة أواوين لا وجود لها في سوريا، وأن المدارس السورية تحتوي على إيوان واحد إذا كانت مخصصة لمذهب واحد ، وتحتوي على إيوانين إذا كانت على مذهبين .

وسوف نقوم بعرض مخططات وصور للمدرسة ، وكذلك أبرز السمات المعمارية لهذه المدرسة مقارنة مع المدارس الأيوبية بدمشق والقاهرة.

♦ باحث سوري مختص بالحضارة الإسلامية، مدرس بجامعة حلب– سوريا .

المقدمة:

لكل حضارة عبر عصور التاريخ صفاتها التي تميزها عن غيرها من الحضارات الأخرى التي تكسبها طابعاً مميزاً خاصاً عن الحضارات السابقة عليها واللاحقة بها. وقد كانت الحضارة الإسلامية باعتراف الجميع شرقاً وغرباً من أعظم الحضارات التي عرفها العالم لما تحتويه من صفات إنسانية وعالمية هدفت إلى خير الإنسان وسعادته والعمل على السمو به إلى أعلى المستويات روحياً و فكرياً و معيشياً .

ومن هذا المنطلق فقد حفلت الحضارة الإسلامية بكثير من المؤسسات التي تتباين في أصولها وتكوينها وطابعها العام وأهدافها، ولكنها ترتبط مع بعضها ببعض برباط مشترك هو خير الفرد والمجتمع. وتتنوع هذه المنشآت فمنها ما هو ديني كالمساجد والزوايا والخانقاوات، ومنها مايحقق أغراض اجتماعية كالحمامات والأسبلة والبيمارستانات، ومنها ما يخدم النشاط الاقتصادي كالوكالات والخانات والفنادق والأسواق، ومنها ما استهدف تحقيق رسالة علمية وتعليمية كالمدارس والمكاتب ودور الحكمة والعلم.

- المعنى اللغوي للمدرسة:

اختلف العلماء حول معنى كلمة مدرسة وأصلها اللغوي، فمنهم من ردها إلى أصلها العربي ومنهم من اعتبرها ذات أصل عبري، وكل فريق يبرهن على صحة فكرته، وفيما يلي عرض لذلك:

- من يقولون بعروبة الكلمة: ذكر المقريزي[1] : درس الكتاب يدرسه درسا ودراسة من ذلك كأنه عاوده حتى انقاد لحفظه. و درّسته إياه أي علمته إياه وأفهمته، ومن الشاذ قراءة ابن حيوة "وبما كنتم تدرسون" والمدرس: الموضع الذي يدرس فيه، ولفعل درس في العربية معان كثيرة:[2]

- درس بمعنى القراءة وذلك كما ورد في القرآن الكريم "وليقولوا درست".[3]
- درس بمعنى الحفظ كما في قولهم درست السورة، أي حفظتها.
- درس بمعنى الانطماس والزوال و الاندثار كما في قولهم درست هذه الأخبار.
- و درست أي تعلمت كقوله تعالى "وكذلك نصرف الآيات و ليقولوا درست" وفي الحديث تدارسوا القرآن أي أقرءوه وتعهدوه لئلا تنسوه.[4] أيضا لها معنى الشخص الذي يقوم بالتدريس "والكتاب يدرسه و يدرسه درسا قرأه، كأدرسه ودرسه".[5]

١- المقريزي، الخطط، ج٤، ص ١٩١-١٩٢.

٢ - ابن منظور، لسان العرب، تح،عبد الله الكبير وآخرين ، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م ، مج٢، ص١٣٥٩-١٣٦٠.

٣- سورة الأنعام، الآية ١٠٥.

٤- ابن منظور، لسان العرب، مج٢، ص ١٣٥٩-١٣٦٠.

٥- الفيروز بادي، القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت ١٩٨٣م، ج٢، مادة درس؛ إبراهيم مصطفى و أحمد حسن الزيات، المعجم الوسيط، ج١، مطبعة مصر، القاهرة ١٩٦٠م، ص٢٧٩.

– من قال بعدم عروبة الكلمة[6]: هناك من يقول إن كلمة مدرسة عبرية الأصل ،وقد دخلت إلى العربية قبل الإسلام، وذلك لأن أقدم النصوص اللغوية التي استعملت فيها هذه الكلمة هو القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى " ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب و الحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب و بما كنتم تدرسون"[7] و قوله تعالى أيضا " ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق و درسوا ما فيه"[8] و البعض الآخر يقول بعدم عروبتها حيث أن "درس" موجودة في العبرية والسريانية و المدارس في العبرية و هو مكان الدراسة، و هذه هي الترجمة الحرفية للكلمة، و لكن هذه الكلمة استعملت للدلالة على كتاب مقدس عند اليهود، و هو كتاب في تفسير الكتاب المقدس، و تعني المدارسة بالمعنى العام، و خصصت بالشروح و التفاسير التي وضعها الأحبار على الأسفار. و تؤدي لفظة درس و درش الدارسة العميقة للفهم و التعلم ، فهي أعمق من معنى قرأ، وكان العبرانيون يعبرون بها عن دراسة الشريعة والتوراة.[9]وهي بنفس المعنى الحرفي في السريانية و هو استعمال متأخر و يرجح أنها دخيلة من العبرية، و هذه العبارة تفسر لنا بوضوح أصل كلمة مدارس التي قال عنها صاحب اللسان.[10]

ما يمكن قوله سواء كانت الكلمة ذات أصل عبري أو عربي فإن اللغة العبرية و العربية تنتمي إلى لغة واحدة هي السامية وأن استعمال كلمة مدارس أومدرس في العبرية لم تكن لتعطي نفس المعنى الذي استخدم في الإسلام فيما بعد،ففي العبرية ربما كان قاعة درس أومكان الدرس وليست مدرسة لها هيئة خاصة وكوادرها كما في الإسلام.

– **التعريف الاصطلاحي:** تأتي كلمة مدرسة بالمفهوم الاصطلاحي على النحو التالي:

المدرسة هي المكان المخصص للدراسة ويضم عددا من المدرسين و الطلبة، و الذين يتناولون الرواتب المنظمة سواء كان ذلك من إيراد أو وقف، و تكون في مكان منفصل عن المسجد أو الجامع.[11]

وهناك من اعتبرها مبنى مخصصا للدرس، يضم عدداً من الطلاب المتفرغين للدراسة و عددا من المدرسين المتفرغين للتدريس أيضا على أن يكفل هؤلاء و أولئك

٦- منصور فهمي ، قاعات البحث، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج١، القاهرة ١٩٣٥م، ص١٠٧ ؛ صلاح السيد، تطور المدارس الإسلامية منذ نشأتها حتى الفتح العثماني ، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الزقازيق، مصر ١٩٩٠م، ص٣٥.

٧ - سورة آل عمران، الآية ٧٩.

٨- سورة الأعراف، الآية ١٦٩.

٩ - صلاح السيد، تطور المدارس الإسلامية، ص٣٨.

١٠- ابن منظور، لسان العرب، مج٢، ص ١٣٥٩-١٣٦٠.

١١- عبد الغني عبد العاطي ، التعليم في مصر ، ص٤٩.

الدولة أو مؤسس المدرسة فتصرف لهم الرواتب أو الجامكيات[12] من إيراد أو وقف ثابت مخصص للمدرسة.[13]

و هناك قول إنها الدور المنظمة التي يأوي إليها طلاب العلم، و تدر عليهم المعاليم و الأرزاق، و يتولى تدريسهم فئة صالحة مختارة و منتقاة من المدرسين و العلماء يختارون بحسب شروط الواقف من الذين يحسنون القيام بهذا الغرض.[14]

و هناك من قال بأن المدرسة منشأة دينية لها شروط خاصة، و تعريفها مستمد من البيوت المخصصة فيها لسكنى الشيوخ و الفقهاء، لا من قاعات التدريس و المدرسين، كما يبدو من مدلول اللفظ.[15]

يمكن القول من التعاريف السابقة بأن المدرسة منشأة معمارية خاصة يجتمع فيه الطلاب و المدرسين في قاعات مخصصة للتدريس و لهم معاليم معينة يكفله الوقف أو الإيراد الذي خصصه المنشأ، وأن المدارس أخذت هذا المعنى في العصر الإسلامي على المكان المخصص للدراسة و المنفصل عن الجامع و المسجد فكل التعاريف السابقة صحيحة و مكملة بعضها البعض.

– الأسباب التي أدت إلى ظهور المدارس:

أولا:نشر المذهب السني لمواجهة المذهب الشيعي الاسماعيلي،الذي أخذت الخلافة الفاطمية في مصر تنشره بالقوة في مصر وبلاد الشام،لدرجة أن بعض العلماء اعتنقوا المذهب الشيعي خوفا من الفاطميين،فكان لابد لنور الدين زنكي ومن بعده صلاح الدين الأيوبي و خلفائه في مصر و بلاد الشام من الإكثار من إنشاء هذه المدارس لتقوم بتخريج و تدريب دعاة لمواجهة دعاة وعلماء المذهب الشيعي.وكذلك لمحاربة الاتجاهات الفلسفية التي عدها الحكام نوعا من الهرطقة وإلهاء الناس عن دينهم.[16]

وكذلك تخريج عدد من الموظفين و الإداريين لشغل المناصب الهامة في الدولة و إحلالهم محل الإداريين السابقين في العصر الفاطمي ، بعبارة أخرى إنشاء جيل جديد مدرب في المدارس الجديدة لشغل المناصب ، و قامت المدارس بهذا الدور و كانت

١٢- مفردها جامكية ، وهي الرواتب عامة . (القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٥٧).

١٣ الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٥٧م، ص١٠.

١٤ - محمد كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٦٧.

١٥- أحمد فكري، مساجد القاهرة و مدارسها، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٩م، ج٢، ص١٦٣.

١٦- سعيد عبد الفتاح عاشور، عبد الرحمن الرافعي، مصر في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٤م، ص٣٩٣ ؛ رضوان الليث، الحياة العلمية، ص٨٩ ؛ كمال بدور، مملكة حلب الأيوبية، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة دمشق، ١٩٩٨م، ص٢١١.

أيضا تقوم بتخريج أساتذة متعمقين من كافة المذاهب السنية و الاختصاصات المتنوعة لشغل مناصب القضاء والوزارة و غيرها.[17]

ثانيا: إتاحة فرصة التعليم المتقدم لأبناء الفقراء حيث إنه و حتى عصر السلاجقة كان التعليم في مراحله المتقدمة مقصورا على أبناء الأغنياء فقط لما يحتاج إليه من إمكانيات مادية كثيرة لا يستطيع عليها الفقراء ، و بعبارة أخرى أرادت الدولة توفير هذا النوع من التعليم للفقراء أيضا لتحقيق نوع من العدالة الاجتماعية.[18]

ثالثا: النهضة العلمية و الانفتاح الثقافي الذي طرأ على الأمة الإسلامية من خلال دخول تيارات ثقافية جديدة ، وتطور علوم مختلفة دعت الحكام إلى إنشاء المدارس لأن المساجد لم تعد تستوعب تدريس كافة العلوم الدينية منها و العقلية و أن هذه العلوم الأخيرة تحتاج إلى قاعات و مخابر و أدوات لشرحها لا يمكن استخدامها بالمساجد.[19]

رابعا: تضافرت جهود كل المسلمين على اختلاف مكانتهم من أجل خلق جيل إسلامي ناشئ على العقيدة الإسلامية الصحيحة، دون أن يمسها أي تحريف لمواجهة الصليبيين الذين عاثوا في الأراضي المقدسة و في بلاد الشام و مصر الفساد و زرعوا الخوف و الذعر بين المسلمين.[20] و فيما بعد الخطر المغولي، فكان لابد من إنشاء جيل ذو عقيدة سليمة و فكر جهادي ناضجا لمواجهة هذه الأخطار.

خامسا: بنيت المدارس من قبل الحكام و الأمراء و العلماء و التجار من أجل كسب الثواب و التقرب إلى الله و أوقفوا عليها الأوقاف الغنية.[21] ولكن جرجي زيدان[22] يرى إنه بالإضافة إلى الأجر والثواب كان هناك سبب دعا الأمراء غير العرب على إنشاء المدارس هو أنهم كانوا في بلاط السلطان و يغلب أن يكون صنائعه أو مواليه فيكون عليهم حق الولاء فإذا توفي أحدهم عن مال أو ضياع و أراد السلطان قبضها فعل و حرم أبناءه منها، فكان الرجل منهم إذا بلغ الأمارة وكثر ماله خاف عادية السلطان على ما يخلفه من ذريته،فيبني المدارس و الزوايا والربط، ويقف عليها الأوقاف المغلة من ضياعه أو أبنيته، ويجعل في شروط الوقف أن يتولاه بعض ولده وله نصيب منها،والأوقاف ثابتة فيأمن بذلك على أولاده من الفقر.ربما كان رأي زيدان ينطبق على العصر المملوكي،ولكن العصر الأيوبي لم يشهد مثل هذه المصادرات، و

١٧- كمال بدور، المرجع نفسه، ص٢١١؛ عبد الله عطية عبد الحافظ، الآثار و الفنون الإسلامية، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٤٠.

١٨- عبد الله عطية عبد الحافظ، المرجع نفسه، ص١٤١.

١٩ صلاح السيد، تطور المدارس الإسلامية، ص٩٧.

٢٠- رضوان الليث، الحياة العلمية، ص٩٠.

٢١- عبد الله عطية عبد الحافظ، الآثار و الفنون الإسلامية ، ص١٤٢- ١٤٣.

٢٢- تاريخ التمدن الإسلامي ، دار الهلال، القاهرة ١٩٣١م، ج٣، ص٢٢٥.

إنما بنى الأمراء المدارس إدراكا منهم بضرورة لعب دور مهم في الحياة الاجتماعية والعلمية،ولم يكن السلاطين في ذلك الوقت يقوم بمصادرة أملاك أمرائهم.

سادسا: الازدهار الاقتصادي[23] الذي عم بلاد الشام ومصر في العصر الأيوبي و السيطرة على الطرق التجارية الدولية بعد توحيد الأيوبيين مصر والشام، وضم مناطق أخرى إلى دولتهم مثل اليمن وجزء من المغرب و غيرها،رافق ذلك انتشار الأمن في هذه المناطق، و أجبرت المدن الإيطالية على إقامة علاقات تجارية مع مصر وحلب و مدن الساحل بعد أن عجزت عن السيطرة على هذه المناطق من خلال دعم الحملات الصليبية المتتالية على بلاد الشام و مصر،هذا الرخاء الاقتصادي انعكس على المنشآت الخدماتية و العلمية بشكل خاص و يلاحظ ذلك من خلال حجم المنشأة و كثرة أو قافها.

هناك أسباب عديدة لنشأة المدارس أيضا مثل تخليد الذكر، والحاجة إلى وجود سكن للطلاب داخل المدرسة، و كذلك تطور العلوم و الحاجة إلى المناظرة و المجادلة، و هذا يتنافي مع آداب المسجد فكان لابد من إنشاء مؤسسات تعليمية مستقلة بذاتها.[24]

تتميز المدرسة عن المسجد بالآتي :

– الإيوان: وهو من أهم خواص وميزات المدرسة وهو بمثابة (قاعة المحاضرات حالياً) وما كانت مدرسة تخلو منه وهذا لم يوجد بالمساجد.

– وجود مساكن للطلبة والأساتذة في المدرسة ومرافقها من مطبخ وحجرة طعام أو ما شابهها.

– كان المدرس يعين من قبل واقف المدرسة، بخلاف المساجد التي طالما جلس بها مدرسون دون أن يعينوا للتعليم فيها.و كان عدد التلاميذ محدودا غالبا في المدارس، و كان ينالهم نصيب من وقفها، عكس المساجد التي لم يحدد عدد الطلاب فيها.[25]

– نشأة المدارس في العالم الإسلامي:

يجب علينا عند البحث في تاريخ المدارس الإسلامية تجنب التعبيرات ذات الدلالات العامة غير المحددة، فقد اعتاد بعض الكتاب المحدثين في كتاباتهم عن الإسلام و حضارته أن يطلقوا كلمة المدرسة على المعاهد العلمية الإسلامية، فيتحدثون مثلا عن مدارس الأندلس في زمن بني أمية مع خلو هذه البلاد في ذلك العصر من نظام المدارس.[26]أويخلطون بين معنى مدرسة كمذهب فكري أو فني،وهذا معنى تغلب عليه

٢٣- عبد الله عطية عبد الحافظ، الآثار و الفنون الإسلامية ، ص١٤٣.

٢٤- لمياء الجاسر،مدارس حلب الأثرية تاريخها وعمارتها،ط١،دار الرضوان،حلب ٢٠٠٠،ص١-٢ .

٢٥- أحمد شلبي، التربية الإسلامية، ص١٣.

٢٦- تضاربت آراء المؤرخين حول تاريخ وجود المدارس في الأندلس، وساعد على ذلك قلة البيانات وسكوت المصادر والمراجع : فمن قائل أن الأندلس لم يتح لها أن تستفيد من هذا النوع من التعليم إلا متأخرا جدا، وكانت أول مدرسة بها في غرناطة سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م، أنشئت في زمن يوسف الأول تقليداً للمدارس المغربية. أما بعض الباحثين فيقول أن تأسيس المدارس في=

الحداثة والمعاصرة لم يكن معروفا في الماضي،وبين معناها كمؤسسة تعليمية. وبعد ظهور المدارس النظامية عمل بعض المؤرخين على إطلاق هذا المصطلح على معاهد كانت تمثل الإرهاصات الأولى لظهور المدارس ولكنها لم تكن في حقيقتها كذلك.[27]

لكن سبق المدارس النظامية معاهد تعليمية أدت إلى ظهور المدارس أو مهدت لظهور المدارس بالمعنى الكامل لكلمة مدرسة التي تعني مؤسسة لها طلابها وأساتذتها ومساكنها ونظامها التعليمي وهذا ما دعي بعض الباحثين إلى اعتبار المدارس النظامية هي أول نموذجاً للمدارس الحكومية الرسمية في الإسلام، ربما هذا راجع بالدرجة الأولى لشهرة نظام الملك سياسياً، وكذلك ماتخصصت فيه النظاميات من مساندة المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي، مما أدى إلى شهرة هذه المدارس، ولكن المدقق يصعب عليه تصور أن تكون النظاميات بتعددها ظاهرة مفاجئة إذ سبقتها مدارس.[28] وسوف نستعرض الآن المعاهد العلمية أو بعض المدارس الصغيرة والمتفرقة التي سبقت المدارس النظامية.

ذكر أن الخليفة المعتضد بالله العباسي٣٢٠-٣٢٢هـ/٩٣٢-٩٣٤م، هو الذي جعل التدريس براتب محدد، لما أراد بناء قصر في الشماسية ببغداد، استزاد من الزرع (أي زاد في المساحة) بعد أن فرغ من تقدير ما أراد، فسئل عن ذلك فذكر أنه يريد ليبني فيه دوراً ومساكن ومقاصير، ويرتب في كل موضوع رؤساء لكل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعلمية، وكرى عليهم الأرزاق السنية ليقصد من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه. ويذكر المقريزي أيضا: " أن أول ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر كان في خلافة

=أسبانيا الإسلامية قد أتى من ناحية الشمال أي بتأثير من أوروبا ومن أسبانيا المسيحية حيث أن الفونسو العاشر أسس مدرسة في مرسية لعالم مسلم هو القرقوطي الذي يستطيع تدريس كافة العلوم وأكرمه الفونسو واحترمه كثيراً، ووصلت الأخبار إلى مدينة غرناطة أن ملك مسيحي أقام مدرسة لعالم مسلم لكي يتولى فيها تعليم أبناء الديانات الثلاث، وهنا تحرك سلطان غرناطة، ودعاه إلى مدينته، وبعد إلحاح شديد لم يجد العالم المسلم بدا من مغادرة مرسية، أما أرنست كونل في كتابه الفن الإسلامي فيقول: وكما أدخل صلاح الدين نظام المدرسة إلى مصر أدخله الموحد يعقوب المنصور في أسبانيا والمغرب ٥٨٠-٥٩٦هـ/١١٨٤-١١٩٩م مع عدم تحديد أفكار معمارية ولم يتطور هذا النوع من الأبنية الدينية من حيث الهندسة المعمارية. ما يهمنا من هذا كله أن المدارس في الأندلس بنيت في فترة متأخرة وأن المشرق الإسلامي والشام ومصر كانت السباقة لهذا النوع من الأبنية التعليمية. (محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٢م، ص٣٧٨-٣٨١، أرنست كونل، الفن الإسلامي، ت أحمد موسى، دار صادر، بيروت ١٩٦٦م، ص١٢٢-١٢٣).

٢٧- صلاح السيد، تطور المدارس الإسلامية، ص٨١-٨٣.

٢٨- فتحي أبو سيف، مظاهر من الحضارة الإسلامية،دار الفردوس للطباعة، القاهرة٢٠٠٠م، ص٩٧.

العزيز بالله الفاطمي ٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٨٦م،ووزيره يعقوب بن كلس و كان ذلك في سنة٣٧٨هـ/٩٨٨م أي بعد مائة عام من إجراء الخليفة العباسي المعتضد بالله" [29]

ما يمكن الإشارة إليه في ذلك الصدد ما ذكره المقدسي ت ٣٩٠هـ/٩٩٩م في مقدمة كتابه " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" العناء الذي كان يلاقيه في جمع مادة كتابه حيث قال: " أنه تفقه وتأدب وتزهد وتعبد وأنه فقه وأدب وخطب على المنابر، وأم في المساجد، وذكر في الجوامع واختلف إلى المدارس" كما قال في وصف مدينة الري[30] :" بلد جليل وبه مجالس ومدارس". [31]

ذكر المقريزي في كتابه الخطط " أن المدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور فبنيت فيها المدرسة البيهقية وبنى أيضاً الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة وبنى أخو السلطان محمود بن سبكتكين[32] مدرسة وبنى بها أيضاً المدرسة السعيدية وبنى بها أيضا رابعة.[33] وقال السبكي ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م عن ابن حمشاد[34] أنه ظل ملازما لمسجده و مدرسته إلى أن مات في سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م.[35]

٢٩- ابن كثير ،البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٥٥-٧٨ ؛ المقريزي ، الخطط، ج٤، ص١٩٢.

٣٠- الري :بفتح أوله وتشديد ثانيه ، هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات وهي من بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخا فتحها المسلمون سنة ٢٠هـ/٦٤٠م. (الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص١١٦).

٣١- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦م، ص٤٤ ؛ أيمن سلام ، المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي و دورها في نشر المذهب السني، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ، قسم التاريخ، جامعة طنطا، مصر ١٩٩٩م ، ص٣٤.

٣٢- مؤسس الدولة الغزنوية، استقل عن السامانيين واعترف به الخليفة العباسي القادر بالله ولقبه : يمين الدولة ، وأمين الملة، أبا القاسم محمود ولي أمير المؤمنين وذلك في سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م قام بعدة حملات على الهند، وصد هجمات خانات أيلك حكام تركستان ، أخذ أصفهان من يد بني بويه سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م، اهتم محمود الغزنوي بالعلم ورعى العلماء ، أسس مجمعا علميا لا مثيل له في عصره.توفي سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م.(الكرديزي ، زين الأخبار ، ت عفاف السيد زيدان ،المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٦م ، ص٢٥١-٢٧٣ ؛ شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ط٥ ، دار الفكر ، دمشق ٢٠٠١م ،ص٢١٥).

٣٣- المقريزي، الخطط، ج٤، ص١٩٢.

٣٤- هو محمد بن عبد الله بن حمشاد الأستاذ مولده سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م تفقه بخراسان والعراق ودخل الحجاز واليمن، كان من المجتهدين والزاهدين في الدنيا وتخرج به جماعة من العلماء والواعظين وظهر له مصنفات أكثر من ثلاثمائة مصنف توفي سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م.(السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ت عبد الفتاح محمد الحلو ومحمد الطناحى, ط٢، هجر للطباعة والنشر و التوزيع , القاهرة ١٩٩٢م ، ج٣ ، ص١٧٩).

٣٥- طبقات الشافعية الكبرى، ج٢،ص١٧٩.

كذلك ما كتبه أيضا السبكي عن ابن فورك[36] من أن أهل نيسابور كانوا قد بنوا له مدرسة،[37] وكذلك بنوا للأسفرايني[38] مدرسة أيضا ودرس فيها ومات سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م.[39] وهذا يدل على وجود المدرسة قبل نظام الملك.

تنسب المدارس النظامية إلى الوزير السلجوقي نظام الملك أبي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي وزير ملك شاه بن ألب أرسلان، وشرع في بناء أول مدرسة في بغداد سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م، وانتهت سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م، ودرس بها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي صاحب كتاب "التنبيه على مذهب الإمام الشافعي"، فاقتدى به الناس في خراسان[40] والعراق وما وراء النهر وفي بلاد الجزيرة وديار بكر.[41]

المهم أنه من هذا التاريخ أصبحت المدرسة لها تعريف محدد، وانتشرت المدارس النظامية في بلاد الشام، وكانت أول مدرسة أنشئت في دمشق هي المدرسة الصادرية في القرن الخامس الهجري، وتحديداً سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، وبناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله المتوفى بعد ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، وهي قرب الجامع الأموي بدمشق. أما عن أول مدرسة في حلب فكانت المدرسة الزجاجية الشافعية بنيت سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، والذي تولى بناءها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار[42] صاحب

٣٦- محمد بن الحسن بن فورك الأصفهاني، صاحب التصانيف الحميدة والسيرة السديدة والفضائل العديدة، دخل العراق وأقام مدة يدرس العلم ثم توجه إلى الري راسله أهل نيسابور وبنوا له مدرسة ودارا مات هناك سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م، ودفن بنيسابور له أكثر من مائة مصنف بالفقه. (ابن أسعد اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص١٨).

٣٧- ابن أسعد اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٢٨.

٣٨- هو أحمد بن محمد بن أحمد الأسفرايني حافظ المذهب حبر من أحبار الأمة ولد سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م، قدم بغداد شابا فتفقه بها حتى صار من أحد أئمة المذهب الشافعي، توفي سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م. (السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤ ، ص٦١).

٣٩- الشيرازي، طبقات الفقهاء، تح خليل الميس، دار القلم ، بيروت د.ت، ص٢٢٥ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح شعيب الارناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، ج١٧، ط٩، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٢م، ص٣٥٤؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية ، بيروت د.ت، ج٢، ص٢١٠.

٤٠- خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند، وتشمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة . (الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢٠٦).

٤١- المقريزي، الخطط، ج٤، ص١٩٢. ديار بكر: بلاد كبيرة واسعة، حدها ما غرب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين. (الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٩٤).

٤٢- بدر الدولة الأرتقي ثاني حكام الأراتقة في حلب، وكان قد حكمها بعد وفاة عمه إيلغازي أول حكام هذه الأسرة بحلب سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م حتى سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، قام بأعمال إصلاحية بحلب، ومنها بناؤه لهذه المدرسة. (ابن الأثير، الكامل، ج٨ ، ص٣٠٩ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص٢٠٩).

حلب، بدأ ببنائها سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، وتم البناء سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م ولقي بناءها معارضة من قبل الشيعة الذين كانوا كثر في المدينة، وتم البناء بمساعدة الشريف زهرة الحسيني،[43] وكان وجيها في حلب ومن أكابرها.[44] وأصبحت المدارس بعد النظاميات ظاهرة مرتبطة بالثقافة الإسلامية في كافة أرجاء الشرق الإسلامي، حيث تعددت النظاميات في مواجهة فكر الشيعة، واستمر الاهتمام ببناء المدارس وانتشارها بكثرة في بلاد الشام في العصر الزنكي والأيوبي والمملوكي ويرى بعض الباحثين عند دراسته لرعاية الدول الإسلامية للمؤسسات العلمية أن هناك خمسة يوضعون على القمة في قيادة الحركة العلمية وأولئك هم المأمون ونظام الملك والحاكم بأمر الله ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي.[45]

جدول توضيحي لمدارس حلب في العصر الأيوبي

اسم المدرسة	مكان وتاريخ الوقف أو الإنشاء	سلطان	أمير أو وزير	قضاة	فقيه أو عالم	تجار	خادم أو عتيق	المذهب
الصاحبية	بهاء الدين ابن شداد ٦٠١هـ/١٢٠٤م السفاحية قرب جامع الموازيني			=				شافعية
الهروية	الظاهر غازي ٦٠٣هـ/١٢٠٦م جنوبي محلة الفردوس	=						شافعية
الظاهرية البرانية	الملك الظاهر غازي ٦١٠هـ/١٢١٣م خارج باب المقام	=						شافعية
الرواحية	محمد بن رواحة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م أول زقاق الزهراوي					=		شافعية
الشرفية	شرف الدين عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن العجمي ٦٤٠هـ/١٢٤١م شرقي الجامع الأموي الكبير				=			شافعية
البدرية	بدر الدين عتيق عماد الدين شادي بن صلاح الدين ؟						=	شافعية

٤٣- كان الشريف الحسيني من أكابر الشيعة، ومن ذوي الرأي والوجاهة لديهم، كما كان معظم القدر عند الملوك فقد كان رفيقاً للملك عماد الدين زنكي حتى وفاته. (ابن شداد عز الدين، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ص٩٧).

٤٤-النعيمي، الدارس،ج١،ص٤١٣؛رضوان الليث، الحياة العلمية في بلاد الشام خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ٢٠٠٤م ، ص٨٧ –٨٨.

٤٥- أبو سيف، مظاهر الحضارة الإسلامية، ص٩٨ ؛ عبد الحليم منتصر ،تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط١، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦م، ص٧١.

	رأس زقاق الزهراوي							
الزيدية الالوحية	إبراهيم، عرف بابن زيد الكيال الحلبي ٦٥٥هـ/١٢٥٧م داخل باب إنطاكية			=				شافعية
الفردوس	ضيفة خاتون ٦٣٣هـ/١٢٣٥م خارج باب المقام	=						شافعية
البلدقية	حسام الدين بلدق عتيق الظاهر ٦٣٥هـ/١٢٣٧م الحاضر قرب الكلاسين		=					شافعية
القيمرية	حسام الدين القيمري ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ظاهر حلب جوار المقام		=					شافعية
الأنصارية	مجهولة كتب على بابها ٦٠٤هـ/١١٩٧م الدحديلة							شافعية
الشاذبختية الجوانية	شاذ بخت الأتابك الهندي عتيق الملك نور الدين الزنكي ٥٨٩هـ/١١٩٣م حي الجلوم وسط سوق الزرب		=					حنفية
الأتابكية الجوانية	عبد الله طغرل شهاب الدين الأتابك ٦٢٠هـ/١٢٢٣م محلة باب الحديد		=					=
الجردكية	عز الدين جردك النوري ٥٩٠هـ/١١٩٣م سوق البلاط		=					=
الطمانية	حسام الدين طمان النوري ؟ باب قنسرين بجانب جامع الرومي		=					=
الحسامية	حسام الدين محمود جد ابن الشحنة ٦١٥أو ٦٦٢٥هـ/١٢١٨ أو ١٢٢٧م غربي القلعة		=					=
الأسدية	بدر الدين عتيق أسد الدين شيركوه ٦٢٣هـ/١٢٣٤م مقابل القلعة						=	=
القليجية	محمد بن قليج النوري ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ملاصقة لدار العدل		=					=
الفطيسية	مسعود بن عز الدين أيبك (فطيس) ٦٤٩هـ/١٢٥١م غربي دار العدل		=					=

الشاذبختية البرانية	شاذ بخت الأتابك الهندي عتيق الملك نور الدين الزنكي ٥٨٩هـ/١١٩٣م ظاهر حلب شماليها		=					=
السيفية	سيف الدين علي بن علم الدين بن جندر ٥٩٨هـ/١٢٠١م خارج باب قنسرين		=					=
البلدقية	حسام الدين بلدق عتيق الظاهر ٦٣٥هـ/١٢٣٧م الحاضر ظاهر حلب		=					=
النقيب	الشريف النقيب عز الدين المرتضى بن أحمد الاسحاقي ؟ جبل جو شن			=				=
الدقاقية	علي بن دقاق ٦٢٢هـ/١٢٢٥م أو ٦٣٠هـ/١٢٣٢م شمال الفيض							=
الجمالية	إقبال الظاهري ٦٤١هـ/١٢٤٣م خارج باب المقام		=					=
العلائية	علي بن أبي الرجاء شاد ديوان الملكة ضيفة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م خارج الكلاسة		=					=
الكمالية العديمية	مؤرخ حلب كمال الدين ابن العديم ٦٣٧هـ/١٢٤١م شرقي حلب			=				=
الأتابكية البرانية	شهاب الدين طغربك الظاهري ٦٢٠هـ/١٢٢٣م داخل باب بانقوسا		=					=
مدرسة الجبيل	شمس الدين أبو بكر أحمد بن العجمي ٥٩٥هـ/١١٩٨م داخل باب الحديد				=			شافعية ومالكية
السيفية	سيف الدين علي بن جندر ٦١٧هـ/١٢٢٠م غربي خندق القلعة		=					شافعية وحنفية
السلطانية	الملك الظاهر غازي ٦١٣هـ/١٢١٦م تحت القلعة	=						شافعية وحنفية
السيفية	سيف الدين علي بن جندر ؟ تحت القلعة		=					مالكية وحنبلية
الكاملية	مجهول، بين ٦٢٧-	=						مجهولة

	٦٣٤هـ/١٢٢٩-١٢٣٦م خارج باب المقام							المذهب
الكريمية	؟ لم تذكر سوى عند هرتزفيليد ٦٥٤هـ/١٢٥٦م في باب قنسرين أمام الأسدية							=

- الإطار السياسي والحضاري للعصر الذي أنشئت فيه مدرسة الفردوس: بنيت هذه المدرسة في عصر الدولة الأيوبية، كان صلاح الدين الأيوبي قائدا في جيش الشام الذي أرسله السلطان نور الدين الزنكي لحماية مصر من الخطر الصليبي سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، ثم أصبح وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد. وفي الأيام الأخيرة من حياة العاضد وضع صلاح الدين نهاية الخلافة الفاطمية، وأعاد مصر إلى الخلافة العباسية عام ٥٦٧هـ/١١٧١م .

بعد وفاة السلطان نور الدين الزنكي عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م، دخل صلاح الدين إلى دمشق قادما من مصر عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م، ثم اتجه نحو الشمال، وضم حماه إلى حكمه. أما حلب فلم يدخلها صلاح الدين الأيوبي إلا في عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م. وهكذا صارت بلاد الشام كلها مع مصر تحت حكم الأيوبيين.

دخل صلاح الدين مدينة حلب سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م، فولى عليها ابنه الظاهر غازي ولكن بعد أقل من سنة ولى مكانه أخاه العادل الذي بقي فيها فترة وجيزة ثم استقر في ولايتها الظاهر غازي بن صلاح الدين الذي تزوج من ابنة عمه العادل ضيفة خاتون والتي مارست دور الوصاية على حفيدها يوسف بن العزيز بن الملك الظاهر غازي، وبقيت سلالة الظاهر تحكم حلب حتى سقوطها بأيدي المغول ٦٥٨هـ/١١٦٢م.

عاشت الدولة الأيوبية حتى عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وهي السنة التي سقطت فيها بلاد الشام بأيدي المغول الذين قادهم هولاكو لغزو العالم. وكان للدولة الأيوبية دوراً بارزاً في محاربة الصليبيين وتحرير القدس وغيرها من المدن الأخرى.

اعتنى الأيوبيون ببناء المساجد والمدارس والخانقاهات، كما اهتموا ببناء القلاع وتحصين المدن بالأسوار والأبراج الدفاعية، بسب حالة الحرب بينهم وبين الصليبيين.

شهدت البلاد العربية التي حكمها الأيوبيون نهضة عمت أكثر جوانب الحياة الحضارية، يرجع سببها كما يبدو، إلى الاستقرار ورسوخ الوحدة بين الشام ومصر، تشهد على ذلك الحركة العمرانية التي عمت معظم المدن، والازدهار الاقتصادي، والعناية بالمنشآت الدينية والمدارس، والبيمارستانات والحمامات.[٤٦]

تاريخ بناء المدرسة

---

[٤٦] – عبد القادر الريحاوي، قمم عالمية في تراث الحضارة الإسلامية المعماري والفني، جزآن ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٠م، ج٢، ص٣٦٧.

هي من المدارس الشافعية، وهي أكبر المدارس الباقية في الشام حجماً، من العصر الأيوبي،[٤٧] أنشأتها الصاحبة الملكة ضيفة خاتون،[48] سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م،ومكان المدرسة خارج المدينة من جهة الجنوب في محلة الفردوس.[49]

وهذه المدرسة كبيرة جعلتها تربة، ومدرسة، ورباطاً، ورتبت فيها خلقاً من القراء والفقهاء و الصوفية وأهم من درس فيها شمس الدين أحمد بن الزبير الخابوري وبقي بها إلى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، ووقفت عليها ضيعة كفر زيتا،[50] وثلثي طاحونتها، ومكتوب على بابها سطر في غاية الجودة "**أمر بإنشائه ضيفة خاتون في أيام السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن السلطان الظاهر غازي بتولي عبد المحسن العزيزي الناصري في سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة** " .[51]

-أقسام المبني وعناصره الفنية:

١- البوابة الرئيسية والمدخل: للمدرسة أربعة مداخل، يقع مدخل المدرسة الرئيس في الجهة الشرقية تسقفه نصف قبة مدببة ومفصصة تحملها مقرنصات أو إيوان تملأ المقرنصات طاسته،ويلي الباب دهليز منكسر مسقوف بقبو متطاول (مهدي)،[٥٢] وينفتح على الصحن بقوس مدبب.وجعل الدهليز منكسرا لسببين:

-سبب أمني، إذ تقع المدرسة خارج الأسوار، بعيدة عنها.

-سبب تقني، يهدف إلى إبعاد ضجيج الخارج عن الدارسين والمتعبدين في الداخل.

٢- صحن المدرسة: أن مدرسة الفردوس هي أكبر مدرسة وأكثرها تطوراً بين مدارس حلب، مخططها مستطيل الشكل (٤٤م على ٥٥م) مع صف من الأعمدة على الجوانب الثلاثة وتقدر المساحة المفتوحة(١٣.٠٩م على ١٧.٤٥م). [53] يحيط بالصحن من جهاته الثلاث، الشرقية والغربية والجنوبية رواق مسقوف قائم على مجموعة من البائكات. بينما يتصدر جهته الشمالية إيوان واسع مفتوح مباشرة على الصحن بعقد من

---

٤٧ – أحمد فكري، مساجد القاهرة، ج٢، ص١١٦.

٤٨- هي ابنة الملك العادل الأيوبي، ووالدة الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان الأيوبي، وزوجة الملك الظاهر غازي صاحب حلب، توفيت سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م. (أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر،٤ج،دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م، ج٣ ، ص١٥٨).

٤٩- عبد القادر الريحاوي، العمارة الإسلامية ، ص١٣٩.

٥٠- كفر زيتا: بلدة معروفة تتبع إدارياً مدينة حماة، وتقع إلى الشمال منها. (ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب، ج١، ص٣٢٣).

٥١- ابن شداد عز الدين، الأعلاق الخطيرة ، ج١، ص٢٦٢؛ ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب، ج١، ص٣٢٥.

٥٢ –لمياء الجاسر، مدارس حلب الأثرية تاريخها وعمارتها، دار الرضوان حلب ٢٠٠٠م، ص٢١١.

٥٣-عامر رشيد مبيض،حلب ترحب بكم "جولة أثرية"، دار القلم العربي، حلب ٢٠٠٦م، ص٤٧–٤٨.

- Rana Jalabi Holdijk, Al- Madrasa al-Firdaus, The American University in Cairo, p55-64.

الحجر وهو مسقوف بقبوة. أما بائكات الرواق فهي مكونة من أعمدة حجرية، ذات تيجان مزخرفة بالمقرنصات، تعتبر أقدم نموذج لهذا النوع من التاج الإسلامي الذي حل محل التاج الكورانثي الشائع الاستعمال وفوق الأعمدة عقود من النوع المدبب. ونشاهد بين التيجان وأسفل العقود قطعاً خشبية ، تشير إلى وجود جسور خشبية تشد القناطر إلى بعضها. وهو أسلوب شائع في قناطر العمائر الإسلامية.[٥٤] وأرضية الصحن مبلطة بالمرمر الأبيض و الأسود ، ويوجد في وسط الصحن حوض ماء كبير (فسقية)مؤلف من ثمانية أحجار رائعة.

٣- القبلية: تقع القبلية خلف الرواق الجنوبي، سقفها مكون من ثلاث قباب مدببة: الوسطى بنيت بالحجارة المنحوتة، وهي تستند على رقبتين: العليا تتألف من(١٢ ضلعاً)، والسفلى مربعة، ويتم الانتقال من المضلع(١٢ ضلعاً)إلى المربع بالمقرنصات. إما القبتان على جانبي القبة الوسطى، فتستند كل منهما على الجدران و الأقواس مباشرة، بدون رقبات وعلى جانبي القبلة غرفتان، سقف كل منهما مكون من قبة تستند مباشرة إلى الجدران.يتكون بيت الصلاة من أسكوب واحد، طول جداره(٢٥م)،ويزيد جوفه على(٧أمتار)،ويحف به من كل جانبيه قاعة مربعة، كانت كل منهما ضريحا.[55]

٤- جناحا السكن: من ميزات مدرسة الفردوس التصميم الجديد المبتكر الذي أبعد غرف السكن لأول مرة عن مبنى المدرسة الرئيسي. وبدلا من أن تكون الغرف الموزعة بين قاعات التدريس والمسجد، في فناء واحد، عزلت هنا وجعلت بناءين مستقلين في القطاع الشمالي من المبنى العام للمدرسة ويحوي هذا القطاع، إضافة إلى جناحي السكن، مداخل ودهاليز ووحدات أخرى للخدمات المختلفة. وهو يختلف عن القطاع الجنوبي من حيث الشكل العام والتصميم والعناصر ووسيلة التسقيف، وهذا سببه اختلاف الوظيفة والمتطلبات لكل من القطاعين الجنوبي والشمالي.[٥٦]

يلاحظ في تصميم الجناحين عدم التماثل التام، إلا أن لكل منهما فناء صغيرا، يحيط به أواوين وغرف مختلفة الأحجام، سقفت كلها بواسطة الأقباء. ويرجح أن تكون هناك غرف أخرى في الطابق العلوي الذي يؤكد وجوده سلم حجري في كل من الجناحين.[٥٧]

٥- المحراب والعناصرالزخرفية: ويوجد فيها محراب مصنوع من الرخام الملون المتشابك على أشكال هندسية بديعة الصنع، يعتبر من أندر المحاريب في العالم

---

٥٤ - عبد القادر ريحاوي، قمم عالمية، ج٢ ، ص٣٧٧.

٥٥- أحمد فكري، مساجد القاهرة، ج٢، ص١١٧ ؛

- Rana Jalabi, op, 71-78.

٥٦- عبد القادر الريحاوي، قمم عالمية، ج٢ ، ٣٧٨.

٥٧ - عبد القادر الريحاوي، قمم عالمية، ج٢ ، ٣٧٨.

الإسلامي.ويوجد فيها زخارف كتابية كثيرة.[58]رصعت واجهة المحراب وحنيته بالرخام الملون. وتتشكل زخارف واجهته من أقواس حدوة الفرس الدائري وأقواس مفصصة تتداخل بطريقة فنية جميلة، وتتناوب فيها الألوان:الزهري والأصفر والأسود والسماقي.

ظهر هذا الشكل من الزخرفة للمحاريب للمرة الأولى في محراب مدرسة الشاذبختية عام ٥٨٩هـ بسوق الزرب (مسجد الشيخ المعروف)، ثم في المدرسة السلطانية عام ٦٢٠هـ/١١٢٦م أمام القلعة، ثم في مدرسة الفردوس عام ٦٣٣هـ/١١٣٨م، ومن حلب انتشر إلى أنحاء العالم الإسلامي، وظهر تصميمه ونفذ في محاريب وبوابات عديدة، مع شيء من التعديل. نشاهده في بوابتي مدرسة قرطاي ومسجد علاء الدين بقونية (٦٤٩هـ/١١٥٤م و ٦١٦هـ/١١٢٢م). وفي قبة السلسلة في الحرم القدسي.[٥٩]

وظهر هذا التصميم في المدرسة الجقمقية في دمشق وهي من العهد المملوكي٨٤٤هـ/١٤٢١م،وليس هناك عدا المحراب عناصر زخرفية هامة في مدرسة الفردوس،وكل ما فيها ينحصر في تيجان الأعمدة والمقرنصات والأشرطة الكتابية. ذلك أن المدرسة تمثل روح العصر وخصائص العمارة الأيوبية التي وصفت بالتقشف والاقتصاد بالزخرف،نظرا لحالة الحرب الدائمة. لكنها بالمقابل تتصف بالقوة وجمال التصميم والعناصر،ودقة النسب واستخدام الحجر الجيد النحت كمادة أساسية في البناء.[٦٠]

٦- **القاعات:** يوجد في هذه المدرسة قاعتان تشغلان الطرفين الشرقي والغربي من الباحة، وهما متماثلتان ومتناظرتان. وتنقسم كل منهما بواسطة قوسين مدببين إلى ٣ أقسام، هنالك (٧) فتحات في الجدار الشرقي من القاعة شرقي الباحة وغربي الباحة وتوجد نافذة في القاعة الغربية على الجدار الجنوبي، أما البقية فهي عبارة عن خزن جدارية يعلو كل منها نجفة مستقيمة فوقها عاتق مثلثي. سدت أقواس القاعة في الطرف الشرقي المطلة على الرواق بمنجور ألمنيوم، ويستعمل للصلاة حاليا وتضم حاليا متوضأ، وهناك قبران حديثان في وسط المكان، وقد سقفت كل من القاعتين بثلاث قباب مدببة بدون رقبة تستند على مثلثات أفقية مستديرة الحافة تحملها مثلثات هرمية مقلوبة.[٦١]

٧- **الاواوين:** يوجد فيها (٦) أواوين، إيوان كبير يطل على الباحة الرئيسية يلاصقه إيوان آخر كبير خلفه. واثنان صغيران متقابلان في كل من البناءين الخلفيين . الكبير ينفتح على الباحة الرئيسية ويضم في جدرانه الثلاثة خزنا جدارية يعلو كلا منها نجفة مستقيمة فوقها قوس عاتق مثلثي، ويدور على جدران الإيوان نصوص تحض على العبادة. أما الخلفي فهو أكثر عمقا سد جزء من واجهته بجدار استبدل بمنجور

٥٨- عبد القادر الريحاوي، العمارة الإسلامية، ص١٣٩.
٥٩ - عبد القادر الريحاوي، قمم عالمية، ج٢، ص٣٨٠.
٦٠ - المرجع نفسه، ج٢، ص٣٨٠.
٦١ - لمياء الجاسر، مدارس حلب، ص٢١٤.

ألمنيوم مؤخرا وهذا الإيوان مسقوف وبقية الاواوين بقبو متطاول مدبب.[62] وهو إيوان خارجي في الواجهة الشمالية مفتوح على الشارع بين مجموعتي بناء إلى جانبيه ربما كان يشكل بمجموعه زاوية ذات استعمال خاص كانت ملحقة بمدرسة الفردوس.[٦٣] ربما استخدم مكتب لتحفيظ القرآن ملحق بالمدرسة لإبعاد الضجيج عن المدرسة. لكن يستبعد الدكتور عبد القادر الريحاوي هذا الافتراض ويرجح أن يكون الإيوان المذكور مفتوحا من الأصل على فناء آخر يخص المدرسة. يؤيد ذلك وجود مداخل لدهاليز على جانبي الإيوان تؤدي إلى المدرسة والأجنحة السكنية. وإن شكل فتحاتها ليس من النوع المألوف في البوابات الخارجية، بل هي فتحات داخلية، وكذلك فتحة الإيوان. كل ذلك يفترض وجود فناء أو حديقة تتقدم هذه الجهة من المدرسة زالا مع منشآت أخرى كانت تحيط بها، أو أنه لم يكتمل تنفيذ هذا الجناح من المدرسة أصلا.[٦٤]

٨- **المئذنة:** مبنية من الحجر وتأخذ شكلا اسطوانيا، تقوم على قاعدة مربعة ولها شرفة تقوم على ١٢ ظفر يليها قسم اسطواني وهي مسقوفة بقبة نصف كروية.[٦٥]

٩- **المدفن:** يوجد على جانبي القبلية غرفتان متماثلتان، الشرقية فيها قبران يقال أنه قبر علي بن أبي طالب، وسقفت كل من الغرفتين بقبة مدببة بدون رقبة تحملها مثلثات هرمية مقلوبة.والغرفة الأخرى تحمل شرائط كتابية.[٦٦]

- مميزات عمارة مدرسة الفردوس:

١- **التصميم:** ضمت جميع عناصر المدرسة الأساسية، فيها (٦ أواوين) و(٣ باحات)، استخدم التناظر في تخطيطها والمقاسات الكبيرة في تصميمها. دهليز المدخل منكسر (الباشورة) على نحو سمح بوضع الإيوان أمام القبلية.

ظهر فيها ثلاثة أروقة تحيط بالباحة وقاعتين كبيرتين لأول مرة. أخذت القبلية فيها شكلا مستطيلا يمتد مع الجدار الجنوبي للباحة. وأصبحت غرف المجاورين في بناء مستقل.[٦٧]

٢- **الإنشاء:** استخدم فيها القبو المتطاول (الاواوين، دهليز المدخل الممرات). تضم (١١ قبة) منها: قبة مدببة حجرية(تقع في القبلية) أما باقي القباب فقرميدية مدببة (القبلية، القاعات) والانتقال من الشكل المربع إلى الشكل المضلع بالمقرنصات أو بالمثلثين الهرمين المشطورين المقلوبين، أما الانتقال من الشكل المربع إلى الشكل

٦٢- لمياء الجاسر، مدارس حلب الأثرية، ص٢١٣-٢١٤ ؛ - Rana Jalabi, op, p60-70.

٦٣ - عبد الله حجار، معالم حلب الأثرية، ط٢، مديرية الآثار والمتاحف، حلب ١٩٩٧م، ص١٤٨.

٦٤ - عبد القادر الريحاوي، قمم عالمية، ج٢، ص٣٧٦.

٦٥ - لمياء الجاسر، مدارس حلب، ص٢١٤.

٦٦ - الطباخ، إعلام النبلاء، ج٢، ص١٦٢ ؛ الغزي، نهر الذهب، ج٢، ص ٢١٨- ٢٢٠ ؛ لمياء الجاسر، مدارس حلب، ص٢١٤.

٦٧ - لمياء الجاسر، مدارس حلب، ص٢٢١.

الدائري فيتم بالمثلثات الأفقية المستديرة الحافة (الكروية). كما استعمل في إنشائها القوس المدبب (الأروقة، القبلية، القاعات، الاواوين، المدخل) والقوس العاتق المثلثي (الإيوان والقاعات) والمفصص (الذي يأخذ شكله من نصف القبة ومن المقرنصات التي يعلوها في المدخل).والنجفة المستقيمة(المدخل).والعقد الثلاثي(القبلية والرواق).[٦٨]

٣- **الزخرفة:** استعملت ألواح رخامية متشابكة (المحراب). ونصوص كتابية (الواجهة الشرقية الخارجية، الإيوان، المدفن، الأروقة، المحراب، المدخل). والمقرنصات (المدخل، الأعمدة، القبلية) وزخارف نباتية ناعمة (الأروقة) وأشكال نجمية (المحراب) ومكعبات منحوتة (الواجهة الخارجية) والبركة المثمنة المفصصة، وترخيم الأرضية (الباحة، والأروقة، الإيوان، الدهليز).[٦٩]

سمات المدارس السورية الأيوبية:

استنتج علماء الآثار والباحثين الذين قاموا بدراسات مستفيضة حول المدارس السورية،التي تعود إلى ما قبل عام(٦٦٩هـ/١٢٧٠م)بعض السمات المميزة لها وهي :

١- ذات شكل مستطيل متجه نحو القبلية تماما.[70]

٢- ذات حجم صغير بشكل عام. يعود ذلك لأسباب منها : وجدت كي تخدم مذهبا واحدا، وبنيت بالعشرات فلم يكن من الضروري أن تكون كبيرة.[71]

٣- بيت الصلاة فيها يتكون من قاعة مستطيلة تشغل عادة الجانب الجنوبي من الصحن وتنفتح معظمها بعقد ثلاثي، الأوسط أكبرها، أو في عقد خماسي.

٤- سقفت بيوت الصلاة في مدارس حلب بقبة تقوم على مربع وترتكز على قبوين يقعان إلى جانبيها، وتمتاز قبة بيت الصلاة عن بقية قباب المدرسة عادة بارتفاعها واختلاف طرازها.

٥- لم تضم على الأغلب مآذن، وإن وجدت فيها فتعود إلى عهود لاحقة.

٦- هناك ضريح ملحق بالمدرسة منذ تاريخ مبكر. كذلك استعملت المحاريب الرخامية الملونة، والبوابات المقرنصة.[72]

---

٦٨ - لمياء الجاسر، مدارس حلب، ص٢٢١.

٦٩ - لمياء الجاسر، مدارس حلب، ص٢٢١.

70 - Greswell, the Muslim Architecture of Egypt, vol2, p120.

٧١- لمياء الجاسر، مدارس حلب الأثرية ، ص٣١.

٧٢- المقرنصة: عنصر إنشائي وزخرفي يعمل عادة من أحجار تنحت وتجمع في أشكال ذات نتوءات بارزة تؤلف حليات معمارية تتكون من صواعد وهوابط تشبه خلايا النحل تتدلى في طبقات مصفوفة بعضها فوق بعض في أماكن مختلفة من العمائر الإسلامية مثل أركان القباب وشرفات المآذن و الواجهات والنوافذ والعقود والأعمدة والمداخل وغير ذلك من الأجزاء التي كانت تصلح لقبول هذا العنصر المعماري والفني. (عاصم رزق، معجم مصطلحات العمارة، ص٢٩٣).

ويرى Creswell [73] أن المدرسة الرباعية المصلبة التخطيط المقسمة إلى أربعة أجزاء بواسطة أربعة أواوين لا وجود لها في سوريا، وأن المدارس السورية تحتوي على إيوان واحد إذا كانت مخصصة لمذهب واحد، وتحتوي على إيوانين إذا كانت على مذهبين .

-الاختلافات بين المدارس السورية عن المدارس المصرية المعاصرة لها هي:

١- اهتمت المدارس المصرية بزخرفة الواجهات، وكذلك وجود المآذن فيها.

٢- كانت القبلية بالمدارس السورية مستطيلة تمتد على طول الضلع الجنوبي من الباحة، أما في المدارس المصرية كانت القبلية على شكل إيوان .

٣- لم تضم الصالحية مدفنا، ثم وضع فيها ضريح الملك الصالح مكان قاعة المالكية. ولا نستطيع أن نؤكد أو ننفي وجود المدفن في المدارس الأيوبية المصرية الأخرى.

- الصفات المشتركة لأنظمة المدارس في القاهرة وحلب حتى سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م:

١- أن جدار القبلة هو العامل الرئيسي في تخطيط هذه المدارس جميعا، وأن حدودها الداخلية تنتظم في مستطيل أو مربع قائم على خط هذا الجدار، وفي كل مدرسة بيتا للصلاة، وأن هذا البيت يتصدر بناءها ، وأنه أكثر قاعاتها أهمية واتساعاً، ويلاحظ أن بيوت الصلاة تمتد في موازاة جدار القبلة أكثر من امتدادها في اتجاهه، وأنها صغيرة الحجم، نسبياً، وأنها لا تنقسم إلى أساكيب وبلاطات ومربعات، بل يتكون داخلها من رواق واحد بدون أعمدة.[74]

٢- من الصفات المشتركة بين المدارس أيضا البهو،[75] ويوجد في كل المدارس صحناً مكشوفاً فسيحاً، مربعاً أو مستطيلاً أو قريباً من ذلك. وتبلغ مساحة الصحن نصف مساحة المدرسة أو ثلث المدرسة أو ربع المدرسة.[76]

٣- يوجد في كل المدارس بيوتاً للطلاب من حجرات صغيرة الحجم، بعضها من طابق واحد ومعظمها من طابقين، وعددها يتفاوت من مدرسة لأخرى، ولكنها يتناسب مع حجمها ومع سعة صحنها وبيت صلاتها، وكان يوجد في هذه المدارس قاعات

---

73 . The Muslim Architecture of Egypt, vol2, p120, 121.

٧٤- أحمد فكري، مساجد القاهرة، ج٢، ص١١٨-١٢٠.

٧٥- البهو: لهذه اللفظة دلالات مختلفة لكنها مرادفة لمصطلح البلاطة وهي المكان الفارغ بين صفوف الأعمدة.

٧٦- أحمد فكري، مساجد القاهرة ، ج٢، ص١٢٠.

للكتب وقاعات لتذكير الدروس وتناول الطعام وجلوس المدرسين والنظار والمشرفين والكتبة، وتضم كل مدرسةٍ بناء في كل جانب من جوانبها تصلح لمطبخ ومخبز وحمام وغير ذلك من المنافع العامة.[77]

٤- يوجد في معظم المدارس أيضا ضريحاً أو أكثر، وأن موضع هذا الضريح وبنائه لا يقتطع جزءاً هاماً من بناء المدرسة، وإنما روعي أن ينحصر في ركن من الأركان، وأن يحتل من البناء قدر ما تحتله قاعة من قاعات المدرسة، وأصبحت هذه الظاهرة منتشرة في جميع البلاد الإسلامية حتى ما كادت تبنى مدرسة إلا وأعد فيها مكان ضريح لمنشئها أو لأحد أفراد أسرته[78]

٥- استعمال الحجارة المنحوتة جيدا بالبناء.

٦- احتوائها على العناصر الأساسية للمسقط الأفقي- قبلية – غرف مجاورين....

٧- استخدام الكتابات في المداخل .

٨- استخدام الرخام في زخرفة المحاريب.[79]

---

٧٧ - المرجع نفسه، ج٢، ص١٢١.

٧٨- المرجع نفسه، ج٢، ص١٢١.

٧٩- لمياء الجاسر، مدارس حلب الأثرية، ص٣٥.

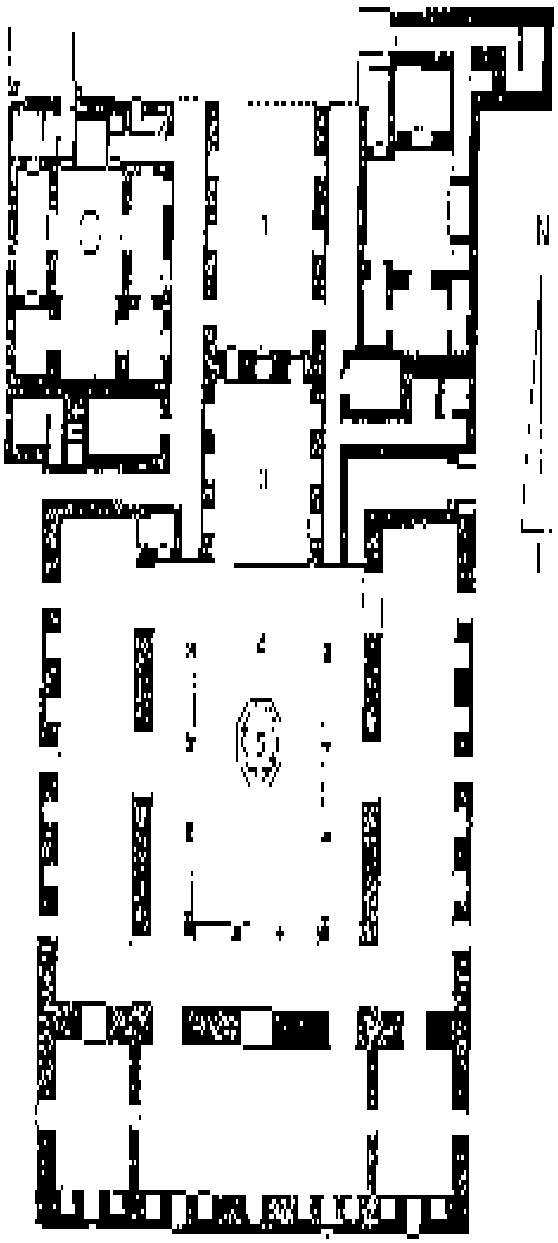

مخطط مدرسة الفردوس(١-الإيوان المفتوح على الخارج ٢- المدخل ٣ – الإيوان الداخلي المقابل للقبلة ٤- الصحن ٥- الفسقية حوض الماء)

Schools in the city of Aleppo Ayyubid (School of Paradise model)

Abstract:

Built this school, Ms. Khatoon girl guest Fair King and wife of King Zahir Ghazi in 633 AH / 1235, and the school's location outside the city from the south in the locality of Paradise. Paradise school, it is the largest and most advanced school between schools in Aleppo, a rectangular scheme in 1944 to 55 m with a row of columns on three sides and open space is estimated at 13.09 m 17.45 m. Courtyard surrounded by rows of columns specially made for the school, and paved with black and white marble, and there in the middle of the courtyard a pool of water consisting of eight large stones fantastic. There are 6-Owaoin, Ewan large patio overlooking the main iwan is attached to another large behind him. Two small and two opposite rear in all constructive. Big open to the main courtyard and includes three walls Khozna wall above each Najafp straight arc lies above trigonometric, and going on the walls of the iwan texts are exhorted to worship. The rear is more deeper part of the dam wall and fronted Bmnjur replace aluminum and recently this iwan-roofed, and the rest of Alawaoin elongated tapered vault, where two rooms are occupying the east and west sides of the courtyard, two identical and Mtnazertan. They are divided by their respective brackets Mudbpin into 3 sections, there are seven slots in the eastern wall of the hall east and west of the courtyard patio. Led by a house of prayer along the wall in 1925, and over his stomach to 7 meters, and flanked by each side of a square room, the respective shrines. Not the rooms adjacent commensurate with the large school. And finds that the school Greswell Quartet divided into four parts by four Owaoin does not exist in Syria, and Syrian schools contain Iwan If one was dedicated to the doctrine of one, and contains Iioanin if they are illuminated.

We will view the plans and photographs of the school, as well as the most prominent architectural features of this school compared to schools with the Ayyubid Damascus and Cairo .